مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 17، العدد 65 (شتاء 2006)، ص 97

قراءة خاصة

بيان نويهض الحوت*

مذكرات رشيد الحاج إبراهيم: كلمة حق في نقد الزعامة الفلسطينية

"الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين: مذكرات رشيد الحاج إبراهيم، 1891 – 1953"، تقديم: وليد الخالدي. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2005. 389 صفحة. 12 دولاراً.

هذا كتاب مذكرات، لكنه ليس كالمذكرات. فالمذكرات تعرفنا على صاحبها، على شيء من سيرته وحياته وعائلته وأصدقائه، غير أن رشيد الحاج إبراهيم نسيج وحده.

هو مسكون بحب حيفا إلى حدود نسيان الذات. هو العربي الصادق والأمين على القضية العربية منذ شبابه الأول. هو عضو المؤتمرات العربية الأولى في دمشق وفلسطين. هو من مؤسسي جمعيات الشبان المسلمين ورئيسها في حيفا. هو من مؤسسي "حزب الاستقلال" والقائد "الاستقلالي" في شمال البلاد. هو الصديق الوفي للشيخ عز الدين القسّام. هو المعتقل في صرفند، والمنفي إلى جزر سيشل. هو المناضل. هو المهاب والمعروف في أوساط الزعماء العرب، غير أن مفهومه للزعامة ليس كالمفهوم الشائع؛ فهو لم يكن يرى في اجتماعاته أو أحاديثه أو رسائله إلى كل هؤلاء، ملوكاً ورؤساء ومسؤولين، أكثر من هدف واحد، ألا وهو العمل من أجل استقلال فلسطين.

رجل كهذا لا يكتب عن نفسه في مذكراته، وإنما عن وطنه. وقد شاءت أقداره أن تكون فلسطين هي الوطن، وأن يكون زمانه هو الزمان الصعب، زمان النكبة.

ولد رشيد الحاج إبراهيم في مدينة حيفا سنة 1891، وتعلم في المدارس العثمانية كأبناء جيله. وكان أول عمل قام به في شبابه موظفاً في سكة حديد الحجاز؛ ومنذ إنشاء البنك العربي في مطلع الثلاثينيات عمل مديراً للبنك العربي في حيفا. استقر بعد نكبة 1948 بمدينة عمّان، وعاش فيها بضعة أعوام قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى سنة 1953؛ وهكذا رحل "أبو عبد الرحمن"، أو "أبو العبد"، كما كان أصدقاؤه ينادونه، عن اثنين وستين عاماً أمضاها في النضال من أجل القضية العربية، وقضية فلسطين. كتب مذكراته في أعوام إقامته بعمّان وهو يعاني مأساته المزدوجة؛ فهو لم يخسر الوطن، والبيت، ومهد الذكريات، فحسب، بل خسر أيضاً أوراقه كلها، وملفاته. خسر كل ما جمعه من وثائق تمهيداً ليوم مقبل، يكتب فيه. ولمّا جاء اليوم، لم يكن لديه أهم من الذاكرة، فاستعان بها، لكنه لم يتمكن من الكتابة عن المحطات التاريخية كما كان يتمنى، بسبب فقدانه أوراقه (ص 1 – 2).

أمّا عن تفصيلات الأحداث التي شهدتها حيفا في الأشهر الأخيرة الحاسمة ما بين 1947/11/29 و1948/5/15، فلم يجابه مشكلة، لأنه كان طلب من مدير اللجنة القومية في حيفا، محمود المنور، تدوين الحوادث اليومية، والوقائع العسكرية، والأعمال الإدارية، فأضحت تلك الأوراق مصدره الأول، بالإضافة إلى قصاصات الورق التي كان يجمعها في محفظته أيام حيفا؛ وأمّا ما بعد النكبة، فكان هو نفسه يحتفظ بالتقارير والمعلومات (ص 1).

أولاً:

هذه المذكرات

مر أكثر من نصف قرن على كتابة هذه المذكرات ووفاة صاحبها، واليوم تتجسد بين أيدينا في كتاب يعود بنا إلى أيام حيفا وفلسطين، أو نحن الذين نعود إلى تلك الأيام عبر صفحاته النادرة، وما تحتويه من معلومات ووثائق، ومن شهادة حية صادقة لرجل تسلم زمام المسؤولية في مدينته وهي تجابه الخطر الأكبر، خطر الضياع. لم يهرب، ولم ينفرد بالقرارات، فأعظم ما تحلى به هو الانضباط وكأنه جندي وليس زعيماً لحيفا. فكانت مهمة أساسية من مهماته التواصل مع القيادة الفلسطينية في الخارج أينما كانت، في مصر أو لبنان أو سورية. كان يذهب بنفسه

للقاء الحاج أمين الحسيني، رئيس الهيئة العربية العليا، أو يبعث بالرسائل إليه مع مندوبين، محاولاً في كل مرة إقناعه بمسألة ما، لكنه لم ينجح ولا مرة، إلاّ ظاهرياً بعض المرات.

أمّا المرارة التي كتب فيها ابن حيفا مذكراته، فمن خلالها يشعر القارئ بفداحة ما جرى، أو من خلال عنوان، أو تحليل، أو تفصيلات يومية. في هذه المذكرات لا فارق يذكر بين وثيقة، أو نص مكتوب، أو تحليل، أو جدول من أرقام، أو لائحة بأسماء شهداء. فصاحب المذكرات ليس همه كيف يقدم ما لديه، ولا كيف تتلاحق الفصول؛ هو صاحب همّ رئيسي واحد، وهو أن يسجل كل ما في أوراقه وعقله وذكرياته وضميره، فلا يُسأل في الآخرة غداً: لماذا يا رشيد الحاج إبراهيم لم تخبر شعبك عن هذا الأمر أو ذاك؟ هل نسيت؟ أم كنت تخشى أحداً؟

حقاً، هذه مذكرات نادرة تنضح صدقاً وأمانة وموضوعية.

حقاً، هذا قلم جريء لا يعرف الخوف إلاّ من الله سبحانه وتعالى؛ وما قال صاحب هذا القلم كلمته ومشى، وإنما استمر في حياته يقول الحق دوماً. استمر يقول كلمته الجريئة حتى بعد الخامس عشر من أيار/مايو، وأمام الملأ؛ فهكذا تكلم في قاعة المؤتمر الوطني الفلسطيني في غزة أمام المفتي وأعضاء المؤتمر وأعضاء حكومة عموم فلسطين (ص 281 – 282). أمّا نقده للزعامة الفلسطينية بالذات، فإني أستطيع القول، بعد خمسة وثلاثين عاماً عشتها وأنا أقرأ عن فلسطين وقضيتها، إن ما قرأته في مذكرات هذا الرجل المناضل، الهادئ الوقور، الإسلامي الأصول، العثماني الثقافة، العربي العقيدة، النظيف الكف، الدمث الطباع، الرقيق الحديث، من نقد مباشر لسياسة الحاج أمين الحسيني، ولسياسة جامعة الدول العربية تجاه فلسطين، في فقرات متعددة ومتباعدة، لهو في مجموعه يشكل نصوصاً فريدة في نوعها، وتفتح باب النقد السياسي الرصين الموضوعي.

في المذكرات ثلاثة أبواب تمتد عبر 356 صفحة (النص المكتوب)؛ الباب الأول عنوانه "الوضع في حيفا لغاية سقوطها...."، وهو يتناول الأشهر الأخيرة من تاريخ مدينة حيفا قبل انتهاء الانتداب، ويتميز بالمتابعة اليومية لما كان يجري من أحداث عسكرية وسياسية وعلى مختلف الصعد، حتى ليشعر المرء بأنه بات يعرف حيفا، بل ويمشي في كل حي من أحيائها، ويعيش كل معركة من معاركها، ويعاني كل عذاب قاسى منه أهلها. وكأن صاحب المذكرات أراد بنشره هذا الباب قبل أي فصل آخر، تاريخي أو جغرافي أو سياسي، أن يقدم أهم ما لديه: هذه هي شهادتي قبل أن أرحل. هذه هي رسالتي لكم. هكذا ناضلت حيفا.. وهكذا سقطت.. وأريد أن أقول لكم.. لماذا سقطت.

أمّا الباب الثاني، وعنوانه "لمحات عابرة عن مراحل القضية والعلاقة بمفتي القدس الحاج أمين الحسيني"، فينقسم أربعة أقسام: أولها عن تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية في عهد الانتداب؛ وثانيها عن العلاقة بالمفتي، وهذا ما استدعى منه العودة ثانية إلى الماضي، إلى العشرينيات فصاعداً؛ وثالثها "عودة إلى الماضي القريب والبعيد حتى 20 نيسان [أبريل]"، تتمحور موضوعاته في معظمها حول منتصف الأربعينيات، حول قيام جامعة الدول العربية ودور موسى العلمي ممثلاً لفلسطين لديها، وينتهي القسم بلقاءات صاحب المذكرات مع مسؤولين في الجامعة العربية؛ وأمّا رابعها، "نبذة عن تاريخ حيفا"، ففيه يتعرف القارئ على حيفا بمختلف أوجهها، على نموها وتطورها وشوارعها وأحيائها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية وجمعياتها.

الباب الثالث والأخير عنوانه "الحرب النظامية من 15 أيار/مايو 1948 لغاية.... 1949"، كتبه مستعيناً بما احتفظ به من قصاصات وأوراق وملاحظات. في القسم الأول منه كتب عن الحرب النظامية حتى الهدنة الأولى، وما رافقها من تطورات عربية ودولية؛ وفي القسم الثاني عن حكومة عموم فلسطين والمؤتمر المضاد في عمّان؛ وفي القسم الثالث والأخير عن عودة الحرب النظامية، واغتيال الكونت برنادوت، والمناقشات في الأمم المتحدة، والمفاوضات الإسرائيلية – العربية الثنائية، ومؤتمر أريحا.

سر المذكرات وأهميتها في الباب الأول، عن سقوط حيفا. فهذه الصفحات نموذج للقادة والسياسيين وأصحاب الضمائر، كي يسجلوا يوميات الأحداث العصيبة التي تمر بها أوطانهم ومدنهم وقراهم، وما أكثرها من أحداث عصيبة متتالية تعيشها أمة العرب. وبإيجاز أقول: هذا الباب ليس مجرد شهادة حية، بل هو الشهادة التي لم يكتب بعد مثلها عن ميناء فلسطين الجميل، حيفا.

أمّا البابان الثاني والثالث، عن فلسطين وقضيتها، فمن المتوقع أن نجد معظم ما يحتويه كل منهما في المصادر والمراجع الأُخرى. غير أن هذا لا يعني أن ليس فيهما الجديد، مادة أو رأياً أو تحليلاً، وسوف نتوقف عند "الجديد" لاحقاً؛ أمّا الأهم في هذين البابين فهو تركيز صاحب المذكرات على الموضوعات التي كان هو يراها أكثر أهمية من سواها، أولاً؛ ثم تعليقاته وآراؤه سواء كانت غير مباشرة، أو مباشرة، أو واضحة كحد السيف، ثانياً.

تحتوي المذكرات على تقديم للأستاذ وليد الخالدي، والتقديم بحد ذاته كتاب مستقل؛ ذلك بأنه ليس سهلاً على القارئ الذي يسعى للتعرف على تاريخ فلسطين وحيفا أن يكتفي بالمذكرات وحدها، نظراً إلى عدم اكتمال موضوعاتها، فهذا كتاب مذكرات، والمذكرات بطبيعتها ليست كتاباً تاريخياً شاملاً، فكيف عندما نضيف إلى هذه الحقيقة مشكلة ضياع المذكرات الأولى والأوراق الخاصة لصاحب المذكرات. غير أن المفكر والمؤرخ الكبير وليد الخالدي، وبعد قراءته الأولى للمخطوطة النادرة، قرر تركها على حالها، فلا تقديم ولا تأخير ولا إضافة؛ وما كان ممكناً أن يتخذ قراراً كهذا إلاّ من كان كوليد الخالدي، حجة ومرجعاً في تاريخ فلسطين المعاصر، وفي الوقت نفسه إنساناً بكل ما في الكلمة من معنى؛ فهو لم ينظر إلى المذكرات مجرد كتاب في التاريخ، بل كان همه في أن يقدم للأجيال رشيد الحاج إبراهيم الإنسان ليس أقلَّ من همه في تقديمه رجلاً مناضلاً وصانع الحدث.

وهكذا، وضع الخالدي الأساس المتين لبنيان المذكرات، وليس العكس كما يتوقع. كتب تقديماً مطولاً امتد نحو تسعين صفحة، كان أروع ما فيه الاندماج الكلي بين الخالدي الأكاديمي، والخالدي الفلسطيني، والخالدي الإنسان؛ وهو نص فريد في نوعه، تأريخاً وتحليلاً وتسلسلاً وشمولية؛ ولا ننسى أن التقديم عادة يعرّف على النص، وأن لصاحبه كل الحق في أن يقول ما يشاء؛ وأمّا هذا التقديم بين أيدينا، فصاحبه لم يعط لنفسه الحرية كي يكتب ما يشاء. كان همه كله منصباً على متابعة دقيقة للمذكرات نفسها مع إضافات تاريخية مشبعة. ويوحي لنا التقديم وكأن الرجلين قد تباحثا في كل الأمور، وكأنه لا يفصل بين نص الأول ونص الثاني أكثر من نصف قرن.

وإن كان لا بد من تنافس بين الرجلين، بين الحاج إبراهيم والخالدي، فهو لم يكن من خلال النص، إذ النصان يتكاملان، وتلك ميزة للكتاب. بل التنافس بينهما في حب فلسطين، هو ذلك الحب الذي دفع الأول إلى الكتابة كيفما تذكّر، ودفع الثاني إلى الكتابة كما يجب.

لا يتوقع وليد الخالدي أي شكر، ولا تتوقع سهى شومان، حفيدة صاحب المذكرات، أي شكر على نفضها الغبار عن مذكرات جدها الكبير وسعيها لنشرها. غير أنني أقول لكل منهما شكراً، ومن الأعماق؛ فهذه المذكرات سوف تصبح حجر الزاوية في بناء النقد الموضوعي الجريء والجاد لتاريخ فلسطين الحديث.

ثانياً:

سقوط حيفا

كان شبح التقسيم قائماً. وكان الزمان خريف سنة 1947 لمّا دعا رشيد الحاج إبراهيم إلى مؤتمر تاريخي في حيفا، تمثلت فيه مختلف الجمعيات والتنظيمات والهيئات والنقابات والطوائف، بهدف وضع الخطة استعداداً للأيام العصيبة المقبلة. وليس من شك في أن هذا المؤتمر كان عملاً استباقياً، ولم يكن من ردات الفعل. انتخب رشيد الحاج إبراهيم رئيساً للمؤتمر، واتخذت مقررات متعلقة بمدينة حيفا تتمحور كلها حول الاستعداد لحرب مقبلة، وذلك بتقسيم المدينة إلى عشر مناطق، وانتداب اللجان، وإعداد قوائم المناضلين، وجمع السلاح، إلخ.

واتُّخذت تسعة مقررات متعلقة بالقضية العامة، أهمها ثلاثة: أن تعلن الهيئة العربية العليا نفسَها حكومة شرعية لفلسطين العربية فور نهاية الانتداب؛ أن يشكَّل في كل مدينة جهاز إداري حكومي يتولى تسلُّم مهمات الحكم من الإدارة البريطانية؛ الشروع في الاستعداد للحرب على كل صعيد.... (ص 18 – 21). غير أن المفتي الحاج أمين رفض المقررات كلها حين تسلمها، وطلب من رشيد أن يوافيه إلى عاليه (لبنان). وهناك شرح له السبب، وهو أن الدول العربية ستأخذ على عاتقها تحرير فلسطين، وأكدت الهيئة موقف رئيسها عبر إعلانها في الصحف أن لا علاقة لها – أي الهيئة – بمؤتمر حيفا (ص 21 – 22).

لم يثن هذا الموقف رشيد الحاج إبراهيم ومن معه عن المضي في الاستعداد، وقرروا الاعتماد على المسرَّحين الفلسطينيين الذين خدموا مع الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، وكانوا نحو ثلاثين ألف فلسطيني، وقد أصبحوا بحكم التجربة مدربين وأصحاب خبرة بالقتال. لكن الهيئة العربية العليا بادرت إلى اتهام هؤلاء جميعاً بالخيانة، ورفضت فكرة تجنيدهم. غير أن حيفا لم تكترث فجندت مئات منهم؛ وقد أثبتت الأيام أن هؤلاء – المتهمين ظلماً بالخيانة – لم يهزموا مرة خلال معارك ومناوشات امتدت أربعة أشهر ونصف شهر. وقد وصفهم صاحب المذكرات بقوله: "دافع هؤلاء الأبطال عند حملة اليهود الكبرى عن حيفا بيتاً بيتاً وسقط منهم نحو مئة شهيد" (ص 22 – 23).

وتشكلت في حيفا لجنة قومية في 1947/12/2، برئاسة رشيد الحاج إبراهيم وسبعة عشر عضواً، كما تألفت لجان قومية في كل أنحاء فلسطين. وقام إضراب عام احتجاجاً على التقسيم لثلاثة أيام منذ اليوم الثاني من كانون

الأول/ديسمبر دعت إليه الهيئة العربية العليا؛ وتلك كانت بداية اندلاع الثورة ضد التقسيم، في أنحاء فلسطين كافة (ص 30 – 31).

ونقرأ في المذكرات تفصيلات عن المعارك والأحداث اليومية. نقرأ قوائم الشهداء والجرحى؛ فنقرأ – مثلاً – عن يوم 1947/12/8 أسماء ستة عشر شهيداً وشهيدة، مع ملاحظة ذكر استشهاد أربعة لم تعرف أسماؤهم ولا هوياتهم. وأمّا عن اليوم التالي، فيقول الحاج إبراهيم إنه كان هناك شهيد واحد لم يعرف اسمه، لكن عرف عنه أنه مصري، ويظن أنه من متطوعي الإخوان المسلمين (ص 42).

تمتلئ الصفحات بالمشكلات الصغيرة، كما الكبيرة. ولعل كبراها كان الخلاف الدائم مع الحاج أمين، وخصوصاً فيما يتعلق بتعيين المسؤولين وإرسال السلاح. فحتى عندما كانت اللجنة العسكرية في دمشق تأمر بإرسال شحنة أسلحة إلى حيفا، كانت لا تصل كلها، لأن رجال المفتي يعطون أنفسهم الحق في أخذ نصفها!! (ص 50 – 56، 66 – 68). وتواصلت المشكلات بين اللجنة القومية في حيفا وبين قيادة المفتي في الخارج. وكانت مقررات المفتي وأحكامه التي يصدرها من الخارج على ما يجري يومياً على أرض المدينة، في رأي اللجنة القومية، ضد المصلحة الوطنية؛ ذلك بأن "سكان مكة أدرى بشعابها." والأمثلة يصعب حصرها، من إدارية وأمنية وعسكرية، وكانت النتيجة أن هذه المشكلات استغرقت من أجل حلها – مع أنها كانت نادراً ما كانت تحل – من الوقت والسفر أكثر مما استغرقت معالجة شؤون الحرب نفسها. أما كان ذلك الواقع بحد ذاته مأساة؟

غير أن في المذكرات من ناحية أُخرى ما يعبث على التفاؤل، ولا سيما إزاء تفصيلات المعارك، وبطولة المناضلين، وفي مقدمهم رجال حامية حيفا الذين كانوا بقيادة الضباط الأردني محمد حمد الحنيطي، وهو قد استشهد في 1948/3/17 مع خمسة عشر عنصراً من الحامية بعد أن تعرضوا لكمين يهودي غادر (ص 89 – 90).

في 8 نيسان/أبريل، غادر رشيد الحاج إبراهيم حيفا في مهمة سريعة – كما تصورها – لمقابلة المفتي في القاهرة، والرئيس شكري القوتلي في دمشق، وكان هدفه العودة بالسلاح. قابل المفتي في 14 نيسان/أبريل في القاهرة، لكنهما لم يتوصلا إلى اتفاق، لا بشأن السلاح ولا غيره، وما كان أمام رئيس اللجنة القومية لحيفا سوى حل من اثنين: إمّا العودة إلى حيفا والاستقالة من رئاسة اللجنة، وإمّا الموافقة على عرض قدمه له صبحي الخضراء الذي كان في زيارة للقاهرة قادماً من دمشق (وكان يومذاك ممثل فلسطين في اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية). أمّا العرض فكان يقتضي بأن يترك رشيد الحاج إبراهيم حيفا ويقيم بدمشق، حيث في إمكانه أن يعمل من هناك مع سواه لتحرير فلسطين. والرجلان صديقان و"استقلاليان". لكن رشيد الحاج إبراهيم قرر العودة إلى حيفا لمتابعة النضال. غير أنه فوجئ وهو يستعد للعودة بالخبر الأليم، خبر وفاة ولده سميح في بيروت، فتوجه إليها وقام بدفن ولده الحبيب، ومن بيروت إلى دمشق في 16 نيسان/أبريل طلباً للسلاح، وقد استجابوا لمطالبه هذه المرة بزيادة ستمئة رجل على عديد الحامية. ولعل نجاحه هذا جعله يتصور إمكان نجاح آخر له، فعاد إلى مصر في 21 نيسان/أبريل للقيام بمحاولة أخيرة لإقناع المفتي بالعدول عن خططه الإدارية، لكن حيفا سقطت قبل أن يتمكن من إقناعه (ص 78 – 80).

كانت مأساة حيفا الكبرى بالتآمر البريطاني مع الصهيونيين، وبالتهاون العربي إلى الحد الذي سمح بأن تبقى حامية حيفا بلا سلاح كاف للدفاع. وتوالت الأحداث متسارعة. ففي 1948/4/21 سلم الجنرال ستوكويل، قائد القوات البريطانية في شمال فلسطين، الإنذار الشهير إلى آمر حامية حيفا الجديد الضابط أمين عز الدين، وفحواه أن الجيش البريطاني لن يتدخل لحماية السكان العرب، وأنه سيسهل الجلاء من طرق محددة.

لم يكن أمام الضابط المسؤول الأول ومعاونه سوى المغادرة سريعاً إلى دمشق طلباً للسلاح. غير أن معركة حيفا لم تنتظر عودة آمر الحامية بسلاح أو من دون سلاح، فاليهود باغتوا السكان العرب بهجوم مفاجئ مباشرة بعد الإنذار البريطاني، واستهدفوا الأحياء التي انسحب منها البريطانيون (مخالفين وعودهم بأن باقون). فبعد منتصف ليل 22 نيسان/أبريل هاجمت قوة يهودية كبيرة مسلحة، مكونة من الهاغاناه أساساً، وبمشاركة الإرغون، الأحياء العربية بعد أن مُهّد للهجوم بقصف مركز ومتواصل براجمات دافيد (دافيدكا)، وكان عناصر الحامية والمناضلون يصدونهم قدر المستطاع. أمّا الجيش البريطاني فأضحت مهمته منع وصول أي إمدادات من جيش الإنقاذ أو القرى المجاورة، وفي الوقت نفسه كانت تجري مفاوضات سياسية. وأمّا في الساعة الرابعة صباحاً من يوم الجمعة، في 23 نيسان/أبريل، فقد حلقت طائرة بريطانية على ارتفاع منخفض فوق البيوت العربية من دوي هائل، متعمدة إيهام العرب بأنها طائرة يهودية؛ وساهم ذلك أيضاً في أن أخذ الناس يهرعون نحو المرفأ طلباً للنجاة، تاركين بيوتهم وأموالهم ومتاعهم، وهمهم الوحيد النجاة بأنفسهم.

في هذا اليوم أيضاً أعطيت الأوامر للحامية بالانسحاب، وكان عدد أفرادها 580 مقاتلاً استشهد منهم في المعركة الأخيرة ستون، كما استشهد عشرة من رجال الإسعاف وأكثر من مئة شهيد مدني. واستمرت عملية الهجرة في اتجاه البحر في فوضى شديدة مدة أربعة أيام حتى 24 نيسان/أبريل، هاجر فيها أكثر من أربعين ألفاً بحراً إلى عكا ولبنان. وأمّا عدد المشردين في حيفا وضواحيها، فقد زاد على مئة ألف عربي (ص 102 – 113). ويعلق رشيد الحاج إبراهيم على سقوط حيفا:

ومع وجود هذا السلاح الضئيل نحن نعتقد أن الإنكليز لو لم يتآمروا على مدينتنا ولو لم يثيروا حرب الأعصاب في مؤخرة شبابنا بتحليق طائراتهم على مستوى أسطحة الدور العربية أثناء المعركة ولو لم يلوّح القائد البريطاني بمجزرة دير ياسين الوحشية التي تناولت النساء والأطفال، أو بعبارة موجزة لو لم يشتركوا مع اليهود في المعركة التي مهد لها بقتال مشمار هعيمك ومنطقة الخليج [أي خليج عكا] لكان في إمكان الحامية أن تصمد وأن تمنع جزءاً من النكبة التي أصابت الأمة العربية في صميمها (ص 117).

ثالثاً:

النقد البناء

لم يتبع صاحب المذكرات أسلوباً واحداً في نقده السياسي. وننقل أدناه عدداً من المقتبسات، يظهر من خلالها رشيد الحاج إبراهيم صاحب الرأي الحر كيف كان ينتقد ضمناً أحياناً، وكيف كان يستعمل أسلوب المواجهة أحياناً أُخرى. نقرأ له في مقدمة مذكراته كيف لجأ إلى ضمير المتكلم بصفة الجماعة "نحن"، على الرغم من أن النقد الوارد في هذه الفقرة بالذات لا ينطبق عليه إطلاقاً، فكل ما يرد في هذه الفقرة كان ضمن مقررات مؤتمر حيفا التي رفضها الحاج أمين. ولنقرأ له:

ولكني أريد أن أسجل أننا خضنا المعركة الفاصلة على غير استعداد، وأننا بدأنا العمل في 2/12/1947 بفلسطين قبل أن يتم إنشاء القيادة العامة، وقبل تشكيل القيادات الخاصة، وقبل أن تكون لنا أية معرفة صحيحة بقوة الأعداء ومدى استعدادهم، وأننا بدأنا الحرب على التقسيم قبل أن تعين ساحات القتال، وقبل أن نقوم بأي عمل تنظيمي لتدريب الشباب والمناضلين وتسليحهم، وقبل تدبير الأموال اللازمة لحالات الحرب، وقبل التفكير بحالات الطوارئ... كما أننا لم نتهيأ لمواجهة الحالات التي نجمت بتخلي بريطانيا عن انتدابها، فلم تشكل أجهزة إدارية لحفظ النظام والأمن (ص 2).

وفي المقدمة أيضاً نراه يضع اللوم أولاً على القيادة الفلسطينية، مشيراً إليها بـ "قادة عرب فلسطين"، وهو يعلم أنه لم يكن هناك "قادة"، وإنما كان هناك زعيم أوحد. قال:

فقادة عرب فلسطين إذن هم المسؤولون الأوائل عما أصاب عرب فلسطين من عظيم النكبة، ومع أني واثق كل الثقة أنه لم يكن بإمكان هؤلاء القادة وحدهم دفع خطر التهويد أو إبعاد شبح إسرائيل المخيف عن الأعين، إلاّ إن هؤلاء القادة كان بإمكانهم أن يجنبوا عرب فلسطين الكرام الأباة قسطاً كبيراً من النكبة (ص 4).

مباشرة بعد إعلان قرار التقسيم، والدعوة إلى الإضراب العام في فلسطين، أي في مطلع كانون الأول/ديسمبر 1947، كتب مقارناً بين مواقف الشعوب العربية الغاضبة وبين تخاذل الجامعة العربية:

تنادت الشعوب العربية في جميع الأقطار والأمصار لشحذ الهمم وتوحيد الصفوف وإلى المبادرة للتطوع لإنقاذ فلسطين. لقد كان الجو ينذر فعلاً بعاصفة، لولا ألاعيب السياسة التي ظهرت في اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة العربية مما أترك البحث فيه للرجال الرسميين وإلى الذين يحتفظون بسجلات ووثائق ومستندات رسمية لو حاولوا هم إخفاءها فإن التاريخ سيتمكن بما له من سيطرة ونفوذ على الزمن من نشرها لتكون الشاهد العدل على أي تقصير أو إهمال أو سوء تدبير أو خيانة اضطلع بها أي مسؤول عربي مهما علت منزلته وسما قدره" (ص 28).

وبينما كان يتحدث عن خطوات الاستعداد في حيفا، يتوقف للنقد بصيغة ضمير المتكلم الجمع، واثقاً من قدرة القارئ على حسن الاستنتاج:

أستعرض هذه العوامل حتى لا يتوجه أبناء هؤلاء المشردين اللاجئين من أهلينا وأقربائنا وأبناء وطننا غداً إلى المقابر يفتشون عن قبورنا صائحين فوق عظامنا يا من خنتم الأمانة واستهنتم بالكرامة، يا من ألهاكم سخف العنعنات والمجد الكاذب عن المعركة الفاصلة التي أعقبت دنيا العرب ذلاً لا يمحى وعاراً لا يزول:
1 – لقد سبقنا الزمن حينما أعلنا استهتارنا بقوة الخصم أولاً في فلسطين نفسها هذه القوة التي هيأتها له ظروف الحرب العالمية الأخيرة.
2 – وحينما أعلنا استهتارنا بذوي الكفاءات والاختصاص والمثقفين من أبناء البلاد ووكلنا أخطر أمورنا إلى عدد من الأميين أو شبه الأميين بداعي الولاء للهيئة ورجالها.
3 – وحينما تحدينا الجمعيات والنقابات العمالية وحاولنا إرغامها على السير في الركاب تحت ضغط الإرهاب.
4 – وحينما ارتضينا البعد عن البلاد وأخذنا نعمل من وراء الحدود.
5 – تقاعسنا في تأمين السلاح وإعداد العدة في انتظار العون من الدول العربية وشعوبها (ص 36).
وبقيت العقبات تتزايد أيضاً كأن قصة الخطر قصة ثانوية لا تستحق عناية المسؤولين بمقدار ما تستحقه من عناية توافه الأمور وصغائرها (ص 37).

ثم ينتقد صاحب المذكرات الحاج أمين الحسيني بصورة غير مباشرة في فقرة بعنوان "بماذا يتحدث الناس عن الحاج أمين"، مبادراً إلى التوضيح أنه لا يعني السواد الأعظم من الشعب، وإنما يعني تلك الطبقة من الرجال التي كانت بحكم وطنيتها ومركزها الاجتماعي قريبة منه.

يقولون إنه خطر لا يؤمن شره وقد ازدادت الشكاوى ضده بعد ثورة 1937 – 1939 ويقولون إنه عنيد وحقود وإنه مستبد لا ينصاع لرأي أحد. ويقولون إنه لا يحب التعاون مع أصحاب الكفاءات والمقدرة وأصحاب التجارب وقد كان في البلاد الكثير من هذا النوع فتجنبهم وأبعد عنهم. ويقولون إنه أناني لا يحب أن يظهر في البلاد اسم غير اسمه. ويقولون إنه إن اعتقد أن شخصاً غير مخلص له يحيطه بالرقباء ويضيق عليه الخناق كما يقولون إنه أوقع الشقاق والعداء في صفوف الناس لأنه كان يؤيد فئة على أُخرى في المدن والقرى. ويقولون إنه اعتمد على أناس ليسوا من أصحاب المقدرة والاختصاص في العمل الوطني (ص 189).

يعقب صاحب المذكرات على آراء الخاصة أعلاه بأن الحاج أمين قد يكون مظلوماً: فالناس حمّلته كل التبعات وهم "يتفرجون". ثم يستخلص أننا "مهما أردنا أن ندافع عنه وأن ننصفه بعد أن صرف معظم حياته وكرسها في سبيل أمته وبلاده لا يسعنا إلاّ أن نقول إن الحاج أمين بعد المقام الذي وصل إليه...."، كان يفترض به أن يكون أقرب مودة إلى الذين عملوا معه كثيراً، وأن يتعاون مع الكل، وأن يعتمد على الكل، وأن لا يتناول بنفسه الصغيرة والكبيرة، وأن لا يهتم بالمهم والتافه من الأمور؛ ويؤكد صاحب المذكرات أن أصدقاءه طالبوه بذلك، لكنه لم يستمع (ص 190)؛ ثم يدلي صاحب المذكرات بتحليله الخاص، فيقول:

لو أنه نزل على رغبتهم [أي الأصدقاء] وأقام في البلاد واتجه اتجاهاً وطنياً جامعاً لما كان خرج أحد من زعماء البلاد ورجالاتها إلى خارج فلسطين ولما كانت البلاد تعرضت إلى هذه النكبة المريرة.... ولكنه على عادته التي جرى عليها واستحكمت فيه، ما كان ليبت في أمر مهما يكن له من أهمية وخطورة بتاً قاطعاً لا رجوع فيه إذا تعارض ذلك الأمر مع رغباته الخاصة المبنية على إيثاره أطماعه أو مع رغبات من يعتمده من حوله من رجال البطانة، فإنه ما كان ليبت حتى ولو اجتمعت الدنيا على ذلك فيبقى متردداً متهرباً ويخلق ألف سبب وسبب ليماطل ويسوّف ويجعل ذلك الأمر معلقاً حتى يمل إخوانه الملل كله وحينئذ فمنهم من يحاربه مضطراً ومنهم من يبتعد عن الميدان ويتخلى عن العمل (ص 190).

وفي نهاية المذكرات قال صاحبها خلاصة رأيه: "فلو كان في فلسطين زعامة قوية حقاً لاستطاعت أن تنظم البلاد تنظيماً حسناً وتخلق لها جيشاً قوياً مدرباً ومسلحاً تسليحاً حسناً. فلو عملت شيئاً من ذلك لما تعرض عرب فلسطين لضياع بلادهم بجولات قليلة وبدفاع أبتر" (ص 338).

أمّا الحاج أمين بدوره، فكان يسعى لمعرفة آراء الغير، وهذا ما سجله صاحب المذكرات حين طلب منه في ربيع سنة 1948 في القاهرة (بعد الضياع) أن يزوره بمفرده، وقد كان بين الرجلين صداقة وجهاد مشترك ومعرفة بعيدة، فسأله المفتي: "ما الذي تراه ناقصاً في أعمالنا، وقد عملنا كل ما يمكن أن يعمله البشر"؟ وأجاب رشيد إجابة مطولة مقارناً بين الوكالة اليهودية والهيئة العربية العليا بإسهاب، ومشيراً إلى عدم توظيف أصحاب الاختصاصات والكفاءة؛ وكانت خلاصة جواب المفتي أنه اختصاراً للنفقات الباهظة بالتعيين كان يقوم بالاستشارات (ص 195 – 196). ويعلق صاحب المذكرات بقوله:

قد يحاول المفتي أن يجد لنفسه المبررات في أنه عمل غاية مستطاعه ولكن النتائج لم تأت كما يراد والجواب الذي يسمعه منا الآن ويسمعه غداً وسيجيبه عليه تاريخ فلسطين المؤلم هو أنه نعم قد عمل غاية المستطاع ولكن بأساليب عرجاء ملتوية فكيف يرجو صحة النتائج مع فساد الأسس والمقومات (ص 197).

هذه المقتبسات أعلاه لم تكن بهدف طرح وجهة نظر صاحب المذكرات فقط، بل أيضاً من أجل التشديد على أهمية طرقه باب النقد، وبكل شفافية ووضوح.

رابعاً:

الجديد في المذكرات

مع استثناء الباب الأول من المذكرات عن سقوط حيفا، وفيه كما قلنا سر المذكرات وأهميتها، فالبابان الثاني والثالث لا يخلوان أيضاً من "الجديد" المتناثر بين الصفحات، من معلومات أو تحليلات أو آراء، وفي هذا يبرز الدليل على أهمية المذكرات التي يكتبها السياسي المطلع. ونتوقف للمثال عند واحدة منها، وهي قبول المفتي بالكتاب الأبيض ثم تراجعه.

كان رفض المفتي للكتاب الأبيض، الصادر سنة 1939، رفضاً جازماً، على الرغم من أنه من المعروف أن أعضاء اللجنة العربية العليا كانوا في معظمهم مؤيدين لكنهم جاروه بالرفض التام، حتى إن حزب الدفاع المعارض للمفتي أرسل إلى اللجنة الملكية معلناً رفضه، وهذا بينما دعت الدول العربية المشاركة في مؤتمر المائدة المستديرة الفلسطينيين إلى القبول، وحاول ممثلوها في المؤتمر إجراء تعديلات محددة، لكن موقفهم العام كان أنهم يقبلون في النهاية ما يقبل به الفلسطينيون.

يروي رشيد الحاج إبراهيم كيف أن مصر أدت دوراً في تعديل الكتاب الأبيض (قبل صدوره رسمياً)، وكانت الحرب العالمية على الأبواب، فتمكن محمد محمود باشا رئيس حكومة مصر، وعلي ماهر باشا عضو مصر في مؤتمر المائدة المستديرة، من التأثير في اللورد هاليفاكس وزير خارجية بريطانيا، حتى حصلا على تعديلات جوهرية لمصلحة العرب. وقد دعا محمد محمود باشا اللجنة العربية العليا إلى مقابلته في نيسان/أبريل 1939، وحضر معظمهم من بيروت، ومنهم من كان في القاهرة، كما حضر صاحب المذكرات بدعوة خاصة، وأخبرهم رئيس الحكومة المصرية أنه بعد فشل المؤتمر قامت مصر وحدها بالاتصالات بلندن لإجراء هذه التعديلات. طالب بعض الأعضاء بمزيد من التعديلات، فوعدهم بإرسالها إلى لندن.

عاد الفلسطينيون الذين اجتمعوا برئيس الحكومة المصرية إلى الاجتماع به ثانية في دار الحكومة بعد بضعة أيام، وكانوا: الدكتور حسين الخالدي؛ جمال الحسيني؛ موسى العلمي؛ فؤاد سابا؛ أحمد حلمي باشا؛ راغب النشاشيبي؛ عوني عبد الهادي؛ يعقوب الغصين؛ رشيد الحاج إبراهيم. فأخبرهم أن الحكومة البريطانية وافقت على بعض التعديلات الجديدة ورفضت البعض الآخر، لكنها لن تقبل بأي تعديل بعد الآن. وألح عليهم في القبول لعدم تفويت الفرصة. تداول الفلسطينيون الأمر وأعلنوا قبولهم شرط قبول المفتي. فطلب رئيس الحكومة من أمين السر الاتصال بالمفتي في لبنان، وكان جمال الحسيني هو من تحدث معه من غرفة أمين السر، ثم عاد معلناً قبول المفتي. اتصل محمد محمود باشا حالاً باللورد هاليفاكس معلناً قبول الجانب الفلسطيني.

صباح اليوم الثالث للقبول تسلم رئيس حكومة مصر برقية من المفتي يعلن فيها رفضه أية حلول تتعارض مع الميثاق الوطني المتضمن الاستقلال التام. وليس موضعنا غضب مصر ورفع يدها عن المسألة، وإنما ما جرى في الجلسة التي عقدت في إثر ذلك بمقر المفتي في لبنان، وقد ضمت كثيرين؛ إذ يروي صاحب المذكرات (والأرجح نقلاً عن رواية أحمد حلمي باشا له، وقد كان أحد الحضور): "أنكر المفتي الموافقة إلاّ إن جمال حجّه بقوة مما أثبت صدور الموافقة عن المفتي فعلاً" (ص 192 – 194). وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا بد من مقارنة هذه الرواية برواية آخرين كانوا بين الحضور للاقتراب أكثر من الحقيقة نظراً إلى التناقض بين الروايات.

أمّا بالنسبة إلى الآراء التي لم يبخل صاحب المذكرات بإعطائها بحزم ورصانة وخلق رفيع، فكان أكثرها أهمية موضوع الاغتيالات في إبان الثورة الكبرى؛ وهو الموضوع الذي أحجم كثيرون من المؤرخين عن خوضه، مكتفين بالعموميات، لكنه يقول:

إنني لا أحمّل المسؤولين تبعة كل اغتيال وقع في البلاد في إبان ثورة 1937 – 1939، إذ لا بد أن يكون كثيرون استغلوا هذه الموجة تسديداً لحسابات قديمة وفي سبيل مصالح ومنافع خاصة، ولكن من الإنصاف أيضاً أن نسجل أن أمثال: 1 – حسن صدقي الدجاني المحامي 2 – ميشيل متري رئيس جمعية العمال العرب بيافا 3 – أنور الشقيري الطبيب 4 – رافع الفاهوم الوجيه 5 – خالد الجراح الملاّك والوجيه 6 – رشاد مصطفى الأحمد من وجهاء قرية رمانة 7 – عزيز نور الموظف بالبريد، لم يكونوا خائنين وأن حوادث قتلهم وأمثالهم كان لها أكبر الأثر في تفريق الشمل وفي الاشمئزاز من سلطة الأمة التي كنا ننشدها بطلبنا للاستقلال والحرية (ص 167 – 168).

خامساً:

المفقود في المذكرات

من الممكن القول إن صاحب المذكرات حر في أن يقول ما يشاء ويحجب ما يشاء، لكن مذكرات الحاج إبراهيم مذكرات سياسية في الدرجة الأولى، وهي لرجل وطني معروف ويعرف الكثير، ومع هذا، فلن نتطرق سوى إلى القليل من الموضوعات التي يعرفها هو نفسه خير معرفة، والتي كنا نتمنى مزيداً منها.

رشيد الحاج إبراهيم خير من يعرف الشيخ الشهيد عز الدين القسّام. كان بالنسبة إليه الصديق الأغلى والأوفى، لكنه في مذكراته لم يكتب إلاّ القليل عنه، والأمنية أن يكون ما زال بين أوراقه ملاحظات أو أوراق خاصة تتعلق بالشيخ القسّام، لتنشر فيما بعد. أقول هذا لأنني لا أنسى يوماً في حياتي، في أول الخمسينيات، في بيتنا في عمّان، حين دخلت بالقهوة للعم "أبو العبد" ووالدي، وفوجئت به يتحدث بغصة وعينين دامعتين، وكان والدي لا يقل تأثراً، وارتبكت، فعمري كان لا يسمح لي بالجلوس أو السؤال، وأنقذني والدي حين طلب مني بالإشارة أن أضع الصينية كما هي. هرولت إلى والدتي وأخبرتها، لكنني فوجئت بها أيضاً تترك ما بيدها، وتقول لي وهي في غاية التأثر: "أنا واثقة أن الحديث عن الشيخ القسّام."

ورشيد الحاج إبراهيم عضو مؤسس وفاعل في حزب الاستقلال، لكنه لم يذكر الحزب إلاّ عرضاً. وفي تصوري أن هذا ليس ناشئاً عن فقدانه أوراقه؛ ففي ذاكرته كثير عن الحزب، لكنه رأى أن سقوط حيفا، وسقوط فلسطين، وما تبع من أحداث جسام، أولى بالحديث. هكذا أعتقد.

ورشيد الحاج إبراهيم قام بعمل وطني سري ما كان ليقدم عليه سوى القلة النادرة من أبناء جيله. وهو قد أشار إلى ذلك ضمناً حين قال في المقدمة أنه خسر مذكراته التي كان كتبها في حيفا عن أيام نضاله في القضية العربية العامة، وفي القضية الفلسطينية خاصة (ص 5). وأمّا لو شاء الكتابة عن مرحلة نضاله في القضية العربية، فكان لتذكر ولاستطاع أن يكتب؛ فهو الذي كان يروي عن تلك الأيام لأصدقائه. لكن الرجل الكبير كان آخر من يتحدث عن نفسه، فليسمح لنا بأن نتحدث عنه.

قامت ثورة جبل العرب في سورية بقيادة سلطان باشا الأطرش سنة 1925. وسرعان ما كان النصر الذي حققته الثورة في معركة الكفر مدعاة لأن يزحف الجيش الفرنسي بالآلاف، فيطبق على جبل العرب ويحاصره من كل الجهات. وكان رشيد طليع من أبرز المساندين للثورة، وهو القائمقام السابق في العهد العثماني، وأول رئيس حكومة في الأردن، وقد جاء من مصر إلى القدس وحل ضيفاً على صديقه عجاج نويهض. ولم يكن بيت هذا الأخير سوى غرفة في فندق صغير يعرف بـ "بنسيون أم جورج"، ودار الحوار بينهما، وتوصل رشيد طليع إلى أن أفضل عون يمكن

أن يقدمه لسلطان الأطرش هو أن يزوده أحدث المعلومات وأدقها عن قوات الجيش الفرنسي، أعدادها وقواتها وأماكن وجودها. لكن الصعوبة كانت في العثور على رجل أمين شجاع يقبل بالسفر إلى مكان الخطر، ويوصل الأمانة. وتوصل رشيد طليع إلى الرجل المنشود بعد دقائق، وهتف: "رشيد الحاج إبراهيم". وحضر الرجل من حيفا. ومهد رشيد الأول لرشيد الثاني بأن المهمة شاقة وخطرة، غير أن الحوار بينهما لم يدم طويلاً. قام رشيد الحاج إبراهيم من دون إبطاء ليستعد للسفر مع مرافق له، اختاره بنفسه، وقد قام بالمهمة خير قيام؛ ومن يعرف عن ثورة جبل العرب يعرف كم كان لهذا العمل من أثر.

* * *

أمّا الجديد حقاً في مذكرات رشيد الحاج إبراهيم فهو الجديد المقبل؛ ذلك بأنه لا يفترض بالزعيم السياسي أو المؤرخ أن يكتب كل شيء. فالكتاب الكامل مفقود، غير أن الأساس المتين يفتح الآفاق للنقد والتتابع، وهذا أعظم ما جاء به الرجلان معاً، رشيد الحاج إبراهيم ووليد الخالدي. فأهمية هذا العمل المتكامل الكبرى هي في أنه يفتح باب النقد السياسي بموضوعية وحكمة ومسؤولية. هذا إرث العظماء للأجيال الصاعدة. وما أحوجنا اليوم إلى نقد مسؤول للقيادات والتنظيمات الفلسطينية السابقة والحاضرة، واللاحقة غداً، من موسى كاظم الحسيني، إلى المفتي الحاج أمين الحسيني، إلى أحمد الشقيري، إلى ياسر عرفات، إلى محمود عباس..■

(*) أستاذة جامعية في العلوم السياسية.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx